قصة مصرية

الاعـــــتراف

بقلم الاستاذ محمد السيد

عزيزتى سميرة !

لست أعرف والله ياعزيزتى كيف أكتب إليك وأنا أنوء بأعباء ثقيلة من الوجد والألم؛ فأنا الآن تحت تأثير ذكريات ناهكة ؛ نعم إنها ذكريات مؤلمة ومحببة إلى نفسى التعسة بقدر مافيها من سخرية ولذعات؛ولكن يخففهاعنى ما يخيل إلى من أنا فى هذه الدنيا مسوقون ـ تحت ضغط قوى مجهولة ـ إلى مقارفة أشياء قد تكون محببة إلى نفوسنا وهى مليئة بالنذالة والجبانة ...

وأريد أن أعترف لك أن الانسان مهما أوتى من فطنة وذكاء لايستطيع مطلقاأن يدفع عن نفسه الأقدار ... الأقدار الموفقة أو الأقدار القاسية على السواء، ثم ألسنا فى النهاية مسوقين إلى ماهو مقدر لنا وسنلاقيه كما هو فى سجل الأزل ؟

والمرء يسعى لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

ولكن، ألا يوجدمايخفف آلام العـذاب ، أو ما يلين من حدة الألم وقسوة وخز الضمير وتبكيت النفس ؟

قد يكون الاعتراف مخففا ، نعم قد يكون فى الاقرار بالذنب نوع من طلب الغفران . . . ثم أليس فى طلب الغفران استجابة للنفس ، وإراحة للضمير المعذب بتخفيف الويلات والمصائب؟

نفسى تحدثنى بهذا، وهى تكرهنى على أن أبوح لك بسرى،وأطلب إليك أن تغفرى لى هذه الزلة ؛ كأنك أنت من أجرمت فى حقه، وكأنك أنت صاحبة الحق فى المغفرة دون سواك !

ولكن ألم تبوحى لى بسرك...وتظهرينى على خبيئة نفسك حين كنا جارتين فى ضاحية (واحات عين شمس) وكان ذلك الجار الأعزب يشاغبك دائما ؟

لقد قلت لى أكثر من هذا،وكيف أن يد الهوى قدلعبت بك فنزلت إلى الميدان... ولكن الفارق بيننا أنك كنت عاقلة موفقة، صهرتك التجربة،ثم خرجت منها سليمة نقية كقطعة الذهب لاتزيدها النار إلا صفاء ونقاء ... أما أنا المسكينة فقد انعكست معى الآية، وحاربتنى الأقدار.

تذكرين قريب زوجى ! ذلك الرجل الطويل الأسمر الذى كان يزورنا كثيراً ... وتعرفين أنه كان تاجراً واسع الثراء ،وكان ذاك الرجل قد بنى لنفسه منزلا أنيقاً (فيلا) بالضاحية،وكان زوجى قد ضمنه لدى بعض البيوتات المالية . . . ومن سوء الحظ أن الظروف عاكست ذلك الرجل فأفلس،وقد خسر زوجى بسببه مالا كثيراً،ثم اشترى من وكيل الدائنين منزله،وأقمنا به، وأعتقد أنى لست فى حاجة لأن أعرفك من هو زوجى ؟ فأنت تعرفينه ...سليم القلب مفتونا

بحب أهله؛ ولا أطيل، فقد شاءت طيبته أن ينشىء لقريبه ذاك مسكنا فى زاوية الحديقة الشمالية الغربية، أقام فيه الرجل هو وأهله .

***

وكان لذلك القريب ولد نجيب يطلب العلم فى المدرسة الثانوية ... قعدت به ظروف أبيه العاثرة عن إكمال دراسته ... ولست فى حاجة لأن أصف لك من هو ؟ فلقــد رأيته فى مخدعى فى إحدى زياراتك لى ، نعم هو ذلك الفتى الأسمر ذو العينين المتوقدتين ذاتا الأهداب الطويلة والنظرات الساحرة ... حقاً لقد فتنى بنظراته وإلحاحه .

ولقد كنت قدمت له يداً؛ ذلك أنى رجوت زوجى فى أن يتولى إتمام تعليمه، فحفظ لى هذا الجميل، وعرف لى تلك اليد...

وقد تكون قصة مسلية أو مضحكة أو مبكية ، أن يهوى طفل امرأة ... ولـكن المؤلم حقاً أن تجاريه تلك المرأة فى الغواية والضلال .

ولقد كانت فتنة بل وسخرية يا سميرة إذا كنا نستضيف ذلك الولد فى أحيان كثيرة إشفاقا عليه ورحمة به ... إذ ما كان يتهيأ له مطالعة دروسه فى بيت أهله فى هدوء؛ وكنت أرى من صالح أولادى أن يطالع دروسه معهم فى منزلنا حتى يشجعهم ويغريهم بالاجتهاد؛ فلقد كان مجتهداً موفقاً للغاية ، فأفسحت له من صدرى أو من صــدر منزلى، وشجعنى زوجى على هذا وأعاننى عليه .

وفى بعض الأحيان كنت ألحظه وهو يرمقنى بعين حائرة فى نظرات متقدة جاهدة فيها من معانى الفتنة والغواية الشىء الـكثير؛ وما كنت أعبأ بهذا، فلعله يرانى مشفقة عليه فينظر إلى شاكراً متأملا؛ لـكن تلك النظرات تكررت ثم تمادت فى التكرار؛ وفى بعض الأحيان كان يصوب إلى عينيه الناعستين ولا يخشانى .

وأخيراً فلأعترف: لقــد هزمتنى نظرات ذلك الولد، وألهمتنى معانى كثيرة ما كنت أعرفها من قبل، حتى لقد كنت بعد هذا أحس كأن نظراته إلى شىء أحبه؛ أو على الأقل أرتاح إليه، وانه حين لا يرمقنى بحدقتيه الحلوتين أشعر كأننى لست منشرحة ولا مغتبطة بالحياة .

أواه يا ربى! لقد أسرتنى عيونه، فهى سر سعادتى وسر شقائى؛ فأنا لم أعرف هذا الذى يدعونه الحب « الحب الآثم » إلا فى تلك العيون، وفى سحرها الجذاب .

أحببت ذلك الطفل، ولقد كانت كبيرة على أن أحبه؛ ولن أنسى خجلى منك وإشفاقى على نفسى حين لحظت على ذلك؛ وحين ألقيت إلى أنه يريد منى شيئاً .

ولقد كانت زيارات منعشة ومحببة إلى، تلك التى كان يمنحنى إياها فى غرفتى أو فى الشرفة حينما كنا نلعب (الورق) أو نتخذ أية سلوى أخرى... وما كانت لى حاجة بلعب الورق غير

أن يجلس أمامي طوال الوقت يتملى بنظراته وابتساماته، فأنا أجد كثيراً من اللذة في أن تكون نتيجة اللعب أني مغلوبة وأنه الفائز .

لم يكن زوجي يعرف عن هذا شيئاً، فهو لا يظن في الخيانة ، لأن الزمن الذي عشناه معاً كان كفيلا بأن يبقى من جهتي مطمئنا راضيا عني ، ناعما بي وبأولادي.

ولست أحيف الحق ولا أزكي الباطل، إذا قلت لك الآن: إن إهمال زوجي لأمري - فانه ما كان يمنحني العناية الواجبة يراقبني - شجعني على أن ألقي بنفسي إلى الرذيلة، وأن أقع في حمأة الجنون ... ثم من تلك التي تستطيع أن تزعم لنفسها العصمة فتدعي أنها هبطت من السماء ، أو أنها ليست إحدى بنات حواء ...؟

* * *

ولقد شاءت العواطف الجامحة ونزوات الهوى الشريرة أن يرتفع التكليف من بيننا، وأن نقارف أموراً ما كان أحرانا بالبعد عنها ، فما كنت أتحرج عن أن تمتد يدي اليه بلطمة أو لكمة حينما كنا نتلاعب، فأغراه هذا على أن يبادلني أعمالي سواء بسواء.

* * *

وفي إحدى تلك الأمسيات التي كان يذهب فيها زوجي وأولادي للرياضة - وكنت أتخلف في المنزل ... لكي أقابل صديقي وأنعم به ... ففي الحق أني كنت قد سئمت التنزه والتريض ، وسئمت كل شيء لا يكون معي فيه - رحنا نلعب أنا وهو، وكم بدا لي اللعب في تلك الليلة حلواً ممتعاً، فكنت أجره من لعبة إلى أخرى، وكم جرينا وكم لعبنا وكم تصادمت أجسامنا بقصد وبغير قصد ... ولكن كلما التقى جسمانا كنت أحس الحياة وأحس لذاذة ومتعة حلوة ، بل وإسرافا في متعة شعبية؛ وكنت تحت تأثير هذا الشعور أستزيد صاحبي من اللعب والمرح، وكان هو يباريني في النشاط... أوه!! لست عرف لعبنا ساعة أو اثنتين؟ وربما ثلاثا ، ونحن لم نمل ولم نألم ، بل ولم يبد أحدنا رغبة في طلب المهادنة ... وأخيراً، وأخيراً جداً - وقد احتوانى الاجهاد وأضناني الاعياء - اصطدمت قدمي بالأرض فوقعت على المتكأ، وكان هو يجري خلفي فوقع فوقي ... أية حماقة وأي جنون يا سميرة أحدثاك عنا: لقد غبت عن الوجود لحظة ثم قمت أبكي، وراح هو الآخر يبكي، وجلسنا في الشرفة صامتين كأنما قد أصبنا بمكروه .

كم أنبني ضميري، وكم احتملت من آلام تلك الصدمة! نعم! كم عانيت! وكم ذرفت دموعا! وكم قتلني وخز الضمير حتى صممت على أن أقطع بصاحبي كل صلة .

لكن حينما كان يأتي إلى منزلنا كنت أراني - من غير وعي ولا شعور - قد هيأت له الفرصة ... فكم كنت مجرمة ... وما كنت أحسب قبل هذا أن مقارفة الرذيلة والادمان على مقارفتها يميتان القلب، حتى ليكون شيئا عاديا أن يقارف الانسان أية حماقة تكررت . ثم لقد أتمم دراسة

الحقوق، وجعله زوجي سكرتيراً له؛ ثم تعين بعد هذا وكيلا للنائب العام وسافر للأقاليم وعلاقاتنا كما هي ... وكنا نتقابل في المنزل وخارج المنزل ... وكم شكا لي ألم الفراق ... كنت أكتب له ويكتب لي، وتبادلنا رسائل الحب وكتب الغرام، وكنت أحسب أن الزمان قد صفا لي وأني جد سعيدة ومغتبطة؛ فهأنا امرأة متزوجة يحبني زوجي ويحب أولادي، وأنا أحب زوجي وأحب صديقي، وأنعم بالاثنين، وكل له في قلبي مكان؛ فأية سعادة؟ وأية غبطة؟ لقد كنت حين أفكر في هذا أغبط نفسي ثم أخشى المستقبل؛ وكان زوجي رجلا محبا للحياة ملحا في هذا كل الالحاح، وكان سعيداً بي طوال تلك السنين، وأنا به جد مغتبطة، فهو لا يرهقني بتكليف، بل ولا يطلب إلي أن أكون إلا كما أريد؛ وهاهو صديقي يحرق نفسه بخوراً كلما رآني، وحين لا أبدو أمامه مرحة طروبا كان يألم وتضيق به الأرض على رحبها وسعتها؛ فلماذا لا أسعد؟ ولماذا لا أحلم؟ ثم لماذا أخشى المستقبل؟

لزوجي أيامه، ولحبيبي أويقاته المعسولة الحلوة، وهي دائماً في مخيلتي وفي قلبي.

وكان من حسن الطالع أن أحداً منهما لا يفكر في صاحبه، وأنا بين الاثنين لعوب طروب، أمنحهما السعادة، وأجني من كليهما ثمار الحب وجني البهجة والسرور.

وكنت أخشى أن يقع زوجي برسائل صديقي التي أقدسها، فهي لدي نعم السلوى عند الغياب ... فإذا خرجت لبعض شأني، وضعت « حزمة الرسائل » الملفوفة في مخمل أحمر والحزومة بخيط من الحرير الأخضر جانباً في حقيبة يدي ... فما كنت أخاف على شيء في الدنيا غيرها.

وفي بعض الأيام ذهبت إلى المدينة واشتريت بعض لوازمي، ومنها خطابات كنت أوصيت عليها من أوربا كي أبعث بها إلى صديقي رسائل غرام ... ولما وصلت إلى (ميدان العتبة) افتقدت حقيبتي فلم أجدها، وكنت قد تأبطتها منذ زمن وجيز.

وأنت تعرفين ماشملني من قلق وخوف على مافي الحقيبة؛ فعدت دهشة مرتاعة أذرع (الموسكي) كالمجنونة ولا مجيب، ولا من مغيث؛ ولما يئست من العثور على الحقيبة لم تكن لي ندحة عن الرواح ففعلت، ولكن كان اليأس والقنوط باديين على وجهي؛ وفي المساء علم زوجي بالحادث من الخادمة ... فأبت عليه مروءته إلا أن يرفه عني، ويطيب خاطري، ثم طلب إلي نسيان هذا الحادث التافه الذي يقع في كل يوم لكثير من الناس.

ولقد مر ذلك اليوم، وكأني قد نسيت ما كان؛ فإن القلق الذي ساورني كان منشؤه الخوف على الرسائل؛ وقد هدأتني فكرتي إلى أن الحقيبة قد وصلت بدالسارق، وهو ما شأنه بالغرام، ورسائل الغرام؟ إنها لا تهمه، فسيحرقها أو سيمزقها، وعلى أسوأ الفروض فسيلقيها في ذلك الوكر الذي يعيش فيه، فتلتهمها الأرضة والعناكب.

وفي أحد الأيام حضر زوجي في الظهيرة كعادته، ولكن وجهه كان أصفر مغبراً كأنه

قادم من سفر طويل ، وكانت عيناه تقدحان بالشرر، ونواجذه بادية، وكان يحمل بنفسه «حافظة» القضايا على خلاف عادته، فقد كان يحضرها له أحد موظفيه .

سألته فى إشفاق وخوف: ماوراءك ياحبيبى ؟ فأشاح عنى بوجهه المصفر، وتركنى ومضى لغرفة مكتبه ، فلم أشك حينذاك فى أنه قد خسر بعض قضاياه الهامة، وهو من أجل هذا محزون؛ وكان من طبيعته أن يحزن إذا خسر بعض قضاياه كأنه هو صاحبها ، وليس محامياً صناعته إبداء الدفاع وتقديم الأدلة والبراهين، وبعد ذلك فللقاضى الحرية فى أن يحكم لمن يريد . .

ماشككت لحظة فى أن غضبه من أجل هذا ، فدخلت عليه متوسلة مستعطفة أن كف ياحبيبى عن هذه العادة السيئة وارحم نفسك ، وماذا يضيرك وقد أديت واجبك فأخطأ القاضى التقدير ؟

لم يجب بل فتح «الحافظة» بحذر وغضب، وأخرج منها خطابا ناولنيه فقرأت:

حضرة صاحب العزة الأستاذ . . . المحامى: ميدان ...

رداً على كتاب عزتكم الرقيم ٨ الجارى نرسل مع هذا حقيبة يد تعلق السيدة حرمكم ، وكان قد عثر عليها بعض الأشخاص فى (السكة الجديدة) ومعها مايأتى :—

عدد	صنف	بيان
١	منديل حرير رجالى كبير كتب عليه بالأفرنجى حرفا F.I	
١	حزمة ملفوفة من الرسائل بعنوان السيدة شوقات (يحفظ بشباك البوستة)	
٥	جنيهات ورق بنك نوت وعشرون مليما.	

وقد حجزنا من المبلغ قيمة العثر وتسلم لمن عثر بالحقيبة كالاصول.

وتقبلوا تحيات . . . مأمور قسم الموسكى — ١٧ مارس سنة ١٩٢١

* * *

لقد كانت النظرة الأولى إلى ذلك الكتاب اللعين قد ذهبت بى إلى الجحيم؛ ولقد بقيت لحظات واجمة جامدة ؛ فماذا حدث؟ وماذا كان ؟ ثم ثقلت قدماى وتضعضعت قواى، وهويت إلى الأرض، ولا أعرف بعد هذا ما كان .

وفى اليوم الثانى تيقظت نوعا ما؛ لكن ما كنت أحس بنفسى، بل كان يخيل إلى كأن السماء قد أطبقت على الأرض؛ أو كأن حملا ثقيلا فوق ظهرى فأنا أنوء به مثقلة متعبة ؛ وفى لحظات أخرى يخيل إلى كأن هذا الحمل قد أصبح جبلا ، إلا أنه من ثلج ، فتأخذنى الرعدة وأغيب عن الوجود ثانيا ؛ وفى لحظات كنت أتنبه فأذكر أن زوجى قد كشف السر وعرف ما كنت أريد أن لا يعرف فيرعبنى الخوف من هول الخطب وفداحته ، فأتصور فى تلك اللحظات كأن حيوانات الجحيم تمد إلى أعناقا طويلة وأفواها واسعة تريد أن تبتلعنى؛ أو كأن ناراً أضرمت من حولى وسألقى فيها... آه ! ياهول العذاب ! وسوء مالقيت ... بالاختصار قد عدت إلى

الدنيا مرة أخرى ، ولكن ماعدت لأعيش كما كنت ، بل لألقى جزائى وأتقبل سوء ماصنعت يداى ... فأنا أعيش الآن عيش الحقارة والذلة ، فزوجى قد أضرب عن دخول البيت ، وتسعة شهور قد ذهبت وهو لم ينس لى جرمى ؛ ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان الخطب مما يحتمل أو يهون ... ولكن هناك أموراً أخرى تسبب العذاب ، وتثير الشجون ، فقد سئم زوجى الحياة وعافها ، فهو يحيا حياة المكره أو المريض الذى أزمن معه داؤه العضال فهو لا يبرأ ، فلا هو حى ولا هو ميت فيستريح.

ولقد أخبرنى (سكرتيره) أن حال المكتب المالية فى سوء مستمر ، لأن (الباش) لا يواظب على الحضور فيه ، وأن عملاءه لا يجدونه حين يطلبونه ، وحتى إذا وجد فإن أحداً من الناس لا يستطيع الدخول عليه ... وهو الآن لا يترافع فى قضاياه الهامة . . . وقد أضاف السكرتير : أن خيراً لسمعته أن يصفى أعماله . . . تصورى معى ثم ارثى لحالى ، فإن أربعة آلاف أو خمسة آلاف جنيه سنويا كانت إيراداً للمكتب قد ضاعت وعلى هذا أن تضيع تباتاً من اجلى ومن اجل حماقتى ، ثم تصورى الأذى فى الألم الممض ، ذلك أن الرجل يكاد يموت هو الآخر ... وابنى وابنتى ماذنبهما إذا كان هذا حظ أبيهما وأمهما المقدور لهما فى سجل الأزل ؟

آه ياسميرة ! ... فالبنت مخطوبة منذ سنتين من موظف كبير ، ونحن منذ هذا الحادث المشئوم نسوف ، فماذا عساه يحدث لو عرف السر ؟ ماذا عساه يقول لو علم أن أم زوجه خاطئة ؟

وابنى البكر ! ذلك الفتى النضر الذى يتيه فى بذلة الضابط يحمل السيف ليدافع عن الوطن ، ماذا يكون حاله لو عرف أن أمه خائنة ؟ ... آه يا ربى ! ماذا يفعل هذا الشاب الذى يتقد نشاطاً وفرحا بالدنيا لو علم الحقيقة ؟ نعم ! ماذا يفعل بنجومه المضيئة على كتفيه ، وبسيفه اللامع فى يديه إذا عرف أن أمه خاطئة قد خانت ... واستحقت قرارة الجحيم ؟

ثم ماذا أفعل أنا لأرتاح ويذهب هذا العار ؟ أأموت ؟ وكيف أموت إذا كان فى الموت ما ينجى هؤلاء البؤساء ؟ .

أأنحر نفسى ؟ وكيف أنتحر ؟ وماذا يكون نصيب زوجى وأولادى من العار والفضيحة ؟

لقد طلبت الموت ولم أجده ، وأنا الآن حائرة مرتاعة ... ويلاه ! ويلاه ! لقد أصبح الموت غالياً يطلبه الناس ولا يجدونه.

ستسألين : وماذا فعل صاحبك ؟ سأشبع فضولك : لقد مات ، نعم ! مات منتحراً بالسم الأبيض ، وهأنا قد خسرت زوجى وخسرت من كان السبب ، ثم إنى على وشك أن أخسر نفسى وأبنائى ...

أليس لهذا الداء من دواء ؟

فى انتظار الجواب . . . أختك : و . ك

طبق الأصل محمد السيد